



الجمهورية العربية المتحدة  
وزارة الثقافة

التَّحْرِيفُ بِابْنِ مَالِكٍ

ابْنُ مَالِكٍ  
تَبْهِيلُ الْفَوَائِدِ وَتَكْمِيلُ الْمَقَاصِدِ

حَقَّقَهُ وَقَدَّمَ لَهُ  
مَحَمَّدُ كَامِلُ بَرَكَاتٍ

الناشر

دار الكاتب العرب للطباعة والنشر

١٩٨٧ - ١٩٦٧ م



ابن مالك  
تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد

# المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة

الموتسة المصرية العامة للنالفة والتشرف

بالاشتراف كى مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

## تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور يوسف خليف

أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب بجامعة القاهرة

أبو عبد الله جمال الدين محمد بن مالك الطائي الأندلسيّ الدمشقيّ أكبر نحويّ ظهر في القرن السابع الهجريّ في العالم الإسلاميّ كله ، ومن أشهر النحاة الذين عرّفهم تاريخ النحو العربي منذ نشأته المبكرة في القرن الثاني للهجرة إلى اليوم . والواقع أننا — إذا استثنينا سيبويه أبا النحو العربي ، وصاحب « الكتاب » أشهر كتاب في النحو — لا نكاد نجد عالماً من علماء النحو نال تلك الشهرة العريضة التي نالها ابن مالك صاحب « الألفية » ، حتى ليخيّل للباحث أن ظهور ابن مالك يُعَدُّ بداية مرحلة جديدة في تاريخ النحو العربي يقف هو فوق قمته الشاخنة ، وهي قمة لم يستطع أحد من النحاة من بعده أن يرقى إليها أو يمد بصره طامحاً في بلوغها . وكأنما انقسم تاريخ النحو العربي الطويل منذ نشأته إلى اليوم إلى مرحلتين أساسيتين ، يقف سيبويه على قمة المرحلة الأولى ، ويقف ابن مالك على قمة المرحلة الأخرى ، وإذا كانت أهمية سيبويه ترجع إلى أنه هو الذي سجّل قواعد النحو العربي ، وخطا به الخطوة الأولى التي حدّدت معالمه ورسمت اتجاهاته ، فإن أهمية ابن مالك ترجع إلى أنه هو الذي قام بأكبر عملية تصفية تمّت في تاريخ هذا النحو ، وخطا به الخطوة الأخيرة التي استقرّ بعدها في صورته الثابتة إلى اليوم . وكأنما ضمن الزمن بعد سيبويه بمقاليده خزائنه ليسلّمها لابن مالك في القرن السابع حتى يَفْتَسَحَ بها هذه الخزائن النفيسة ليستخرج ما فيها من كنوز غالية . وهي كنوز لم تُستَخرجها مقاليده سيبويه للناس كما أتاحها مقاليده ابن مالك الذي مازلنا نعيش حتى اليوم على ذلك الميراث الضخم الذي خَلَفَهُ من بعده ، وهو ميراث ضخم حقاً يبلغ نحو أربعين مصنفًا في النحو والصرف واللغة والقراءات .

ولكن أهمية ابن مالك — في حقيقة الأمر — لا ترجع إلى هذه الغزارة في الإنتاج ، بقدر ما ترجع إلى ذلك المذهب النحويّ العميق الأثر في النحو العربي الذي أقام دعائمه ، ورفع قواعده ، وأتم بنيانه . ومن حسن حظ النحو العربي أن ابن مالك قد ظهر بعد أن نَضَجَتْ دراساته ، واكتملت مذاهبه ، وتحدّدت اتجاهات مدارسه ، فقد أتاح له ذلك أن يكون على صلة بكل هذه المذاهب والاتجاهات المتعددة المختلفة التي يبدو — من خلال كتبه — أن صلته بها كانت صلة وعيٍ دقيقٍ وإدراكٍ عميقٍ واستيعابٍ شاملٍ لها ، وأيضاً صلة ذكاء لامع عبقرى ، وعقلية مبدعة خلاقة . فاتصال ابن مالك بالتراث النحوي الضخم الذي خَلَفَهُ النحاة السابقون لم يكن اتصالاً من يريد أن يعيه ويستوعبه فحسب ، ولكنه أيضاً اتصالاً من يريد أن يضيف جديداً

إليه ، أو أن يأتي — كما يقول أبو العلاء — « بما لم يستطع الأوائل » . وهو ما يصرح به في مقدمته لكتابه « التسهيل » حيث يقول : « وإذا كانت العلوم منحة إلهية ، ومواهب اختصاصية ، فغير مستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ، ما عسر على كثير من المتقدمين » .

وحقا لقد ادخر الله تعالى لابن مالك ما تفوق به على كثير ممن سبقه من النحاة ، وهيتا له من الأسباب ما أتاح له أن يصل إلى ذلك الحديد الذي لم يستطعه الأوائل ، وهو هذا المذهب الذي شغل به النحاة من بعده ، والذي ظل أساسا لأكثر الدراسات النحوية إلى اليوم . وهو مذهب يقوم على أساس المزج والاختيار من المذاهب السابقة كلها ، مع ميل واضح إلى الحياد والتيسير ، وجنوح شديد إلى الاجتهاد والتجديد .



و « الألفية » أشهر كتب ابن مالك النحوية ، بل لعلها أشهر كتب النحو العربي بعد « الكتاب » . وهي تستمد شهرتها من أنها خلاصة دقيقة بالغة الدقة لأهم قواعد النحو العربي التي يقوم عليها بناؤه الشامخ ، يسهل نظمها وحفظها ، وفتح تركيزها الأبواب أمام العلماء المتأخرين ليشتبوا عن طريق شرحها ، والتعليق عليها ، وبسط ما ركزته ، والإطالة فيما لخصته .

ولكن الألفية — على هذه الشهرة الضخمة التي ظفرت بها — ليست أهم كتب ابن مالك النحوية ، وإنما هناك « التسهيل » الذي يعد — بحق — أهم كتاب من هذه الكتب ، والذروة التي وصل إليها في دراساته النحوية . وأهمية هذا الكتاب تأتي — في حقيقة الأمر — من أنه يمثل في دقة بالغة خلاصة التجربة النحوية الطويلة العميقة الخصب التي عاش ابن مالك حياتها لها ، ووهبها كل جهده وطاقته . ومن هنا لم يكن غريبا أن يشغل به العلماء طوأل ستة قرون منذ أن ألفه صاحبه في القرن السابع الهجري إلى أواخر القرن الثالث عشر ، بل لقد وصل الأمر بأبي حيان النحوي ، وهو أشد النحاة مخالفة لابن مالك ، وأكثرهم شغبا عليه ، إلى أن يفرض على نفسه ألا يقرئ أحدا إلا فيه أو في كتاب سيبويه . وهو موقف قد يبدو غريبا ، ولكنه « التسهيل » يفرض نفسه حتى على أشد النحاة تعصبا ضد صاحبه ، كما فرض « الكتاب » من قبل نفسه على نخبة الكوفة المخالفين لمذهب صاحبه واتجاهات مدرسته .

وعلى أهمية هذا الكتاب ، وعلى هذه المترلة الرفيعة التي وصل إليها ، ظل مطويا في ظلمات خزان الكتب ، لم يقدر له أن يرى النور إلا في طبعة قديمة صدرت في مكة المكرمة منذ خمسة وستين عاما ، وهي طبعة لم تتوافر لها وسائل التحقيق العلمي الدقيق ، ولم تتحقق بها مناهجه العلمية المعروفة لنا الآن . وحتى هذه المطبوعة — على ما فيها — لحقت أخواتها المخطوطات ، فطويست مثلهن في بعض خزائن الكتب ، ولم تعد في متناول أيدي الباحثين . ومن هنا أصبحت الحاجة ماسة إلى بعث هذا النص القيم إلى الحياة ، ونقص ما تراكم عليه من غبار السنين ، وأصبح نشره أملا يراود القائمين على أمر العربية ، وأمنية تداعب أحلام طلابها . ومن هنا — مرة أخرى — كان ترحيبي الصادق بهذا العمل الجليل الذي قام به الأستاذ محمد كامل بركات الذي وقف عليه جهده السنين ذوات العدد ، ولم يتن عن عليه لا بالجهد ولا بالزمن .



وأنا أعرف محقق هذا الكتاب منذ أن كان طالباً بقسم اللغة العربية في كلية الآداب من جامعة القاهرة مشغولاً بالنحو والنحاة، مشغولاً به وبهم شغفاً يملأ عليه كل وقته . وهو شغفٌ دفعه في دراسته العليا للحصول على درجة الماجستير إلى أن يتخذ من النحو مجالاً لها، وهو طريق وعبرٌ اختاره لنفسه في كثير من الرضا والارتياح . ومن بين معالم هذا الطريق المتعددة اختار ابن مالك ليكون فاتحةً يستهيلُ بها نشاطه العلمي . وابن مالك - في حد ذاته - منطقةٌ وعرة من مناطق نحونا العربي، ولكنه - مع ذلك - لم يكتفِ بهذا فحسب ، ولم يقنع به وحده ، وإنما اختار من ابن مالك أشد مناطق وعورةً ، وهو كتاب « التسهيل » ليدرس ابن مالك ومذهبه النحوي من خلالهِ . ولست أخفى أنني - حين عهدتُ إلى بالإشراف على هذا البحث - شعرت بشيء غير قليل من الإشفاق .. الإشفاق على الباحث من البحث ، والإشفاق على البحث من الباحث . أشفقت على الباحث لأنني أدرك وعورة الطريق الذي اختارَ أن يسلكه ، وأقدر ثقل العبء ، وضخامة التبعة التي أبى إلا أن يحملها ، وأشفقت على البحث من أن تنوء به اليد الناشئة التي أبت إلا أن تقوم بأعبائه الثقيلة وتبعاته الجسام . ولكني لم أكّد أمضي في مراجعة البحث - بعد أن فرغ الباحث منه - حتى أخذت أشعر بأن إشفاقى على البحث قد أخذ يتضاءل ، وأن إشفاقى على الباحث قد أخذ يزداد . فقد رأيت اليد الناشئة التي أبت إلا أن تنهض بأعبائه وتبعاته يداً قويةً قادرةً ، وأن صاحبها يمتاز بطاقة ضخمة من الجلد والاحتمال والصبر على وعورة الطريق وثقل العبء . ولكني كنت أراه يكلف نفسه من أمرها رهقاً ، بل يكلف نفسه فوق وسعها . واطمأنت نفسي في خاتمة المطاف حين قدرت الجامعة هذا الجهد الضخم، فمستحّت صاحبه أرفع تقديرٍ تمنحه لطلاب الماجستير بها . وهو الامتياز .

وقد توقعت بعد ذلك أن يمضي الباحث في طريقه الذي اختاره لنفسه ، وأن يقوم بنشر « التسهيل » الذي كان قد بدأ في تحقيقه في أثناء دراسته لصاحبه ومذهبه النحوي فيه ، والذي كان قد جمّع من أجله كل ما وصلت إليه يده من نُسَخ المخطوطة في مكتبات القاهرة ودمشق والاسكندرية ، وأيضاً مطبوعته التي نشرت في مكة المكرمة من قبل ، حتى اكتملت له اثنتا عشرة نسخة هي التي اعتمد عليها في إخراج هذا الكتاب من ظلمات الخزان إلى نور الحياة . ومع إدراكي لوعورة الطريق ، وما يكتنفه من صعاب ، وما يقوم في طريقه من عقبات ، شجعت الباحث على أن يمضي فيه ، حرصاً مني على تحقيق الأمل الذي طالما راود القائمين على أمر العربية ، وبلوغ الأمنية التي طالما داعبت أحلام طلابها . وما زلت أطمع - استمراراً مني في هذا الحرص - في أن يظل الباحث مشغولاً بالتسهيل حتى يخرج أهم الشروح التي قامت عليه من ظلمات الخزان إلى نور الحياة .

والله أسأل أن يجزى الباحث عن الجهد الذي بذله في سبيل إخراج هذا الكتاب في هذه الصورة العلمية الدقيقة خير الجزاء ، وأن يشد على اليد الناشئة التي نهضت بهذا العبء الضخم الذي تنوء به العُصبة أولو القوة، حتى تُخرج من خزائن تراثنا العربي الخالد كنوزه الغالية النفيسة ، تحقيقاً لآمال ما زالت تراودنا ، وبلوغاً لأمانى ما زالت تداعب أحلامنا .

والله يسدد خطانا ، ويُجَنِّبنا الزلل ، ويعصمنا من فتنة القول وفتنة العمل .

يوسف خليل

القاهرة في ١٠ من ديسمبر ١٩٦٤ .